القدوة السيئة وآثارها على الفرد والمجتمع في ضوء القرآن الكريم[1]
دراسة استقرائية تحليلية

سلطان بن صغير بن نايف العنزي (*)

جامعة الحدود الشمالية

(قدم للنشر في 1444/7/16هـ، وقبل للنشر في 1444/01/21هـ)

مستخلص البحث: يهدف البحث إلى التعرف على أصناف القدوة السيئة وصفاتها التي حذر منها القرآن الكريم، وبيان أثرها وخطرها على الفرد والمجتمع، مع بيان الأساليب القرآنية في عرض هذه القدوة وطرق التحذير منها، بما ينفر منها أشد التنفير.
وقد قام الباحث باستقراءِ الآيات الدالة على ذلك، وجمعِها ودراستها وذكرِ كلامِ المفسرين في بيان معناها باختصار، والاقتصار على ما يخدم موضوع البحث.
فجاء البحث مقسماً إلى مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث ثم خاتمة وفهارس.
والمنهج المتبع هو منهج الاستقراء والتتبع والتحليل.
وخلص الباحث إلى نتائج من أهمها: أن القدوات السيئة أصناف متعددة، ومتباينة في شدة الخطر والتأثير، وقد تكون القدوة ذاتاً –سواء أكانت فرداً أم جماعة– مثل: إبليس وفرعون، والآباء الضالين، والسادة والكبراء، وقد تكون معنىً كالهوى والشبهة.

كلمات مفتاحية: القدوة السيئة، الاقتداء، الاتباع، أسلوب القرآن.

* * * *

Bad role model and its effects on the individual and society in the light of the Holy Quran: An inductive analytical study

Sultan bin Sughayyir Bin Naif Aalanazi (*)

Northern Border University

(Received 7/2/2023, accepted 11/5/2023)

Abstract: This study aims to identify the types of bad role models, their characteristics that the Quran warned us of, and their danger to the individual and society. In addition, the current study aims to discuss how bad role models are depicted and how they are warned of their consequences in the Holy Quran in order to avoid being a bad model. The researcher has examined a number of verses from the Quran and the short interpretations of their meanings that serve the topic of the research only. The article is divided into an introduction, a preface, four sections, a conclusion and references. The adopted approach is examination, traceability, and analysis. The researcher reported a number of results, including that bad exemplary has many different types. It varies in the level of danger and influence. Moreover, it can be an entity—whether an individual or a group such as Satan, Pharaoh, astray parents, and seniors. It could also be fantasy or suspicion.

Keywords: bad role model, emulation, tracking, Quran methods.

1. حظي هذا البحث بدعم مشكور من قِبل عمادة البحث العلمي بجامعة الحدود الشمالية، في مشروع البحث المدعم رقم (EAAA-2022-11-1620)

(*) للمراسلة:

أستاذ مشارك، قسم الدراسات الإسلامية، كلية التربية والآداب. جامعة الحدود الشمالية. ص ب: 4262 رمز بريدي: 73244 الرقم الإضافي 7865 المدينة: عرعر .

(*) Corresponding Author:

Associate Professor, Dept of Islamic Studies College of Education and Arts. Northern Border University, P.O. Box: 4262, Code: 73244, Arar, Kingdom of Saudi Arabia.

DOI: 10.12816/0061579

e-mail: Dr.sultan2950@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي خلق الخلق فأتقنه، وسنّ الدين فأحسنه، وجبل الناس على جبلة وطبائع، وجعل بعضهم لبعض قدوات، فهم بين غاوٍ وراشد، وعاصٍ وطائع، أحمده سبحانه وأصلي وأسلم على خير قدوة، وأعظم أسوة، نبينا محمدٍ صلى الله وسلم عليه وعلى آله، وصحبه، أما بعد؛ فإن الناس كأسراب القطا مجبولون على تشبه بعضهم ببعض، والإنسان مدني بطبعه، يخالط نظراءه، فهو يؤثر ويتأثر؛ ولذا فإن موضوع القدوة بالغ الأهمية، شديد الخطر عظيم الأثر على الفرد والمجتمع.

ولا غرو حينئذٍ أن نجد في القرآن الكريم إرشادات ربانية ووصايا إلهية تضبط هذا الموضوع، وتبين سبيل النجاة وسبل الهلاك، فعلى المسلم أن يتلوه حق تلاوته، ويتدبره حق تدبره، ويعمل بتوجيهاته، وعلى المجتمع أن يتخذه نبراساً في كل شؤونه، فيستضيء بنوره، ويستهدي بهداياته، ويستقي منه الدواء النافع لقضاياه، ويحذر من الداء، بل الأدواء التي تورده موارد العطب، فتُخل بنظامه، وتربك مسيرته؛ ومنها: القدوة السيئة، فما أعظم خطرها على الفرد والمجتمع، وما أشد ضررها، وما أكبر تأثيرها!

ولذا استخرت الله سبحانه في الكتابة حول هذا الموضوع وجعلت عنوانه: **(القدوة السيئة وآثارها على الفرد والمجتمع في ضوء القرآن الكريم)** "دراسة استقرائية تحليلية"؛ تعبداً لله سبحانه وتعالى بالعيش مع كتابه الكريم، وتدبره، والوقوف على أقوال أئمة التفسير في هذا الموضوع؛ وإسهاماً ومشاركةً في الكتابة حول قضية من أهم قضايا المجتمع؛ ونصحاً لأنفسنا وإخواننا.

سائلاً الله سبحانه و تعالى الهدى والرشاد، إنه أكرم مسؤول وأعظم مأمول، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله، وصحبه أجمعين.

أهمية البحث وأسباب دراسته

تظهر أهمية البحث في النقاط الآتية:

1. أن الله سبحانه وتعالى بيّن في كتابه العزيز للأفراد والمجتمعات طرق الخير والشر وما تؤول إليه كل طريق؛ والاقتداء إنما هو سلوك طريق من سبق، خيراً كان أو شراً.
2. أن الناس بحِبِلّتهم لا غنى لهم عن قدوة، فإن لم يقتدوا بقدوة حسنة اقتدوا بقدوة سيئة.
3. أن القدوة السيئة لها آثار بالغة على الفرد والمجتمع يجب إبرازها ونشرها.
4. أن الله سبحانه وتعالى بيّن لنا نماذج من القدوات السيئة لنأخذ العبرة والعظة.
5. أن القدوة السيئة لها صفات لازمة يجب إظهارها للمجتمع كي تُحذر وتجتنب.
6. أن هذا البحث عبارة عن توصية علمية لبحث سابق بعنوان: القدوة الحسنة في ضوء القرآن الكريم للباحث: د. ناصر بن محمد الماجد؛ حيث جاء في آخره: «فالباحث يوصي بأن يدرس جانب القدوة السيئة في

ضوء آيات القرآن الكريم، دراسة علمية مستقلة»[1].

مشكلة البحث

يحاول الباحث أن يجيب عن الأسئلة الآتية:

1. ما أصناف القدوة السيئة التي ذُكرت في القرآن الكريم؟
2. ما الأسلوب الذي سلكه القرآن الكريم في عرض نماذج القدوة السيئة؟
3. ما صفات القدوة السيئة؟

أهداف البحث

1. محاولة علاج مشكلة من أخطر مشاكل المجتمع في ضوء التوجيهات الربانية الواردة في كتاب الله العزيز.
2. تعريف القدوة السيئة وبيان مرادفاتها في القرآن الكريم.
3. إبراز أصناف القدوة السيئة المذكورة في القرآن، للأفراد والمجتمعات، كي تُحذر وتجتنب.
4. بيان الأسلوب القرآني في عرض نماذج القدوة السيئة بما يرغب في الفرار منها، والحذر من الاقتداء بها.
5. جمع صفات القدوة السيئة، وحصرها -حسب الاستطاعة-.

الدراسات السابقة

لم أقف على دراسة علمية محكّمة تجمع أطراف هذا البحث على النحو المذكور في خطة البحث، وإنما وقفت على دراسات مشابهة له من جانب، ومغايرة من جوانب، وهي:

1. **القدوة الحسنة في ضوء القرآن الكريم** للباحث: د. ناصر بن محمد الماجد، بحث محكم منشور في مجلة الدراسات القرآنية، العدد (8) 1432هـ؛ وهو يتناول القدوة الحسنة فقط، ولم يتطرق للقدوة السيئة.
2. **القدوة**، بحث ضمن موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، إشراف وتحرير: مركز تفسير للدراسات القرآنية، وهو عبارة عن دراسة موضوعية عامة في القدوة، تطرق الباحث للقدوة الحسنة والسيئة بإجمال، وذكر نماذج لكل منهما، ولم يستقصِ جوانب الموضوع؛ وقد رأيت أن موضوع (القدوة السيئة) يستحق أن يفرد بالبحث ويبسط الحديث فيه باستقراء جميع الآيات القرآنية التي أشارت إلى القدوة السيئة -حسب الاستطاعة-.
3. **الدعوة الإسلامية وأثرها في التحذير من القدوة السيئة**، إعداد: د. طيبة عبدالله محمد أبو البشر، بحث منشور في مجلة المنبر، العدد (25)، اكتوبر 2017م، الناشر: هيئة علماء السودان، وهو بحث عام يشمل التحذير الوارد في الكتاب والسنة، بينما هذا البحث خاص في القرآن دون السنة؛ وفيه مبحث عن «القدوة السيئة في القرآن» ولم يُذكر فيه سوى قدوة واحدة وهي الاقتداء بالآباء؛ بينما هذا البحث أوسع

1. انظر: «القدوة الحسنة في ضوء القرآن الكريم»، د. ناصر بن محمد الماجد، بحث منشور ضمن مجلة الدراسات القرآنية، العدد (8) 1432هـ (ص244).

بكثير، إذ حرصت على استقراء واستقصاء كل القدوات المذكورة في القرآن، مبيناً أثر ذلك الاقتداء على الفرد والمجتمع، مدعماً له بكلام أئمة التفسير رحمهم الله.

حدود البحث

اقتصرت في هذا البحث على القدوة السيئة التي حذر منها القرآن الكريم، ولم أتطرق للقدوة التي حذرت منها السنة النبوية، **فحدود البحث: هو القرآن الكريم فقط**، وبالأخص: الآيات التي أشارت إلى القدوة السيئة.

منهج البحث

سلكت فيه المنهج الاستقرائي التحليلي، مستعينا بالله سبحانه وتعالى، وذلك تبعاً للإجراءات الآتية:

1. جمع المادة العلمية، وذلك من خلال استقراء الآيات التي أشارت إلى القدوة السيئة وجمعها وترتيبها حسب خطة البحث.
2. دراسة هذه الآيات ببيان معناها إجمالاً، ووجه الدلالة منها على موضوع البحث، واستنباط الأحكام الشرعية أو الارشادات الإلهية، فيما يخدم البحث، مسترشداً بكلام أئمة التفسير رحمهم الله تعالى.
3. عزو الآيات وتخريج الأحاديث والآثار وتوثيق النقولات حسب المنهج المتبع في سائر البحوث المحكمة.
4. التعريف بالمصطلحات العلمية، وبيان معاني المفردات الغريبة -إن وجدت-.
5. ختم البحث بخاتمةٍ فيها أهم النتائج، والتوصيات، ثم تذييله بالفهارس.

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله.

خطة البحث

قسمت البحث إلى مقدمة، وتمهيد وأربعة مباحث ثم خاتمة وفهارس علمية.

المقدمة، وذكرت فيها أهمية البحث وأسباب اختياره، ومشكلة البحث، وأسئلته، وأهدافه، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وخطته.

التمهيد، وفيه أولاً: تعريف القدوة -لغة واصطلاحاً-.

ثانياً: مرادفات القدوة في القرآن الكريم.

المبحث الأول: أصناف القدوة السيئة، وبيان خطرها على الفرد والمجتمع.

المبحث الثاني: قدوات حسنة جاء النهي عن الاقتداء بها في مواضع خاصة.

المبحث الثالث: أسلوب القرآن الكريم في عرض القدوة السيئة والتحذير منها.

المبحث الرابع: صفات القدوة السيئة.

الخاتمة: وتتضمن: أهم النتائج، والتوصيات.

ثم ذيلته **بفهرس** المصادر والمراجع، **وفهرس** الموضوعات.

التمهيد

أولاً: تعريف القدوة –لغةً واصطلاحاً

القدوة –لغة–: من القدو، ومنه يتشعب تصريف الاقتداء، وهي بضم القاف وكسرها، وبحذف الواو، فيقال: قُدوة وقِدوة وقِدَة؛ وأصلها –القاف والدال والواو–: يدل على التأسي والاهتداء والاقتياس بالشيء، لذا قيل: القدوة: الأسوة؛ وتقول العرب: مرّ فلانٌ يتَقَدَّى بفرسه، أي: يلزم به سنن السيرة؛ والقادية: أول من يطرأ عليك من الناس؛ ومن يتلوهم: هم المقتدون؛ والقدوة: التقدم؛ وفلان لا يقاديه أحد، إذا برز في الخلال؛ وهذا قِدى رمح، أي: قيسُه، فهي تدل إذن على الاقتداء والتأسي والتقدم والاقتفاء والسير على السَّنن (وهو التسنن)، ومُقادرة في الشيء حتى يأتي به مساوياً لغيره[1]؛ ونحوه: الاحتذاء والنحو والقص، فيقال: احتذيت حذوه، ونحوت نحوه، وقصصت أثره[2].

القدوة في اصطلاح أهل التفسير

لم يبعد تعريف المفسرين للقدوة عما ذكره أهل اللغة كثيراً، إلا أنهم أضافوا في معناها: القصد والتعمد والانجذاب في الاقتداء[3]، فالاقتداء لا يأتي مصادفةً، فنيَّةُ العمل فيه مُسْتَحْضَرة، فالمقتدي قَصَدَ الاقتداء وتعمده؛ فيشمل كل أنواع الاقتداء، سواء أكان قولياً أم فعلياً أم حالةً سلوكيةً أم هيئة ظاهرة أو باطنة.

فالاقتداء –عندهم– يعني: اتباع أثر المقتدى به، والأخذ بهديه في القول والفعل والسيرة وطلب موافقته على حالته، سواء كانت حسنة أم قبيحة[4].

قال الراغب –رحمه الله–: «الأسوة والإسوة كالقُدوة والقِدوة، وهي الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره إن حسناً وإن قبيحاً»[5]، وقيل: القدوة: اتباع الشيء انجذاباً أو امتداداً إليه، لاستطابته أو أصالته[6].

ثانياً: مرادفات القدوة في القرآن الكريم

تقدم قول الراغب: «الأسوة كالقدوة»، وهذا أقرب لفظ مرادف للقدوة في القرآن، وقد جاء في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ {الأحزاب:21} وقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ {الممتحنة:4} وقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ {الممتحنة:6}.

وإذا نظرنا في تعريف القدوة –لغة واصطلاحاً– وما تدور عليه من معنى الاقتفاء والاتباع ونحوه فإننا نجد من المرادفات لها: مفردة (الاتباع)، ومفردة (الإمامة)، ومفردة (المثل)[7] وما تصرف من هذه المفردات؛ قال ابن

1. انظر: «العين»، الخليل بن أحمد (367/3)؛ و«تهذيب اللغة»، الأزهري (244/9)؛ و«مقاييس اللغة»، ابن فارس (66/5).
2. انظر: «نجعة الرائد وشرعة الوارد»، اليازجي (ص307).
3. انظر: «القدوة الحسنة»، د.ناصر الماجد (ص118).
4. انظر: «جامع البيان»، الطبري (392/9)؛ و«تفسير ابن فورك»، ابن فورك (97/2)؛ و«البسيط»، الواحدي (268/8)؛ و«المحرر الوجيز»، ابن عطية (66/4).
5. «مفردات القرآن»، الراغب الأصفهاني (ص76).
6. «المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم»، محمد حسن جبل (1782/4).
7. انظر: «القدوة الحسنة»، د. ناصر الماجد (ص122).

عاشور -رحمه الله-: «وأما لفظ المتابعة فقد شاع إطلاقه على الاقتداء»[1].

وهي وإن لم تكن مرادفة للفظها تماماً، فهي من لوازمها؛ وكما ذكرتُ قبل قليل: مما يميز لفظ القدوة أن الاقتداء لا يأتي مصادفةً، فنيَّةُ العمل فيه مُسْتَحْضَرة، فالمقتدي قَصَدَ الاقتداء وتعمده.

وجاءت الأوامر الربانية في الآيات القرآنية التي وردت فيها هذه المفردات حاثّة على الاقتداء بالمذكور -إن كان حسن الحال-؛ **أو ناهية عنه** -إن كان سيء الحال-؛ وذلك كقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ {الأعراف:3}، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ {القصص:41}، والنهي عن الاقتداء بهؤلاء المذكورين ظاهر جداً.

المبحث الأول: أصناف القدوة السيئة، وبيان خطرها على الفرد والمجتمع

إن من المعلوم للجميع ما للقدوة من أثر كبير، وأنه لابد للناس من اتخاذ قدوات يتعزّون بها، ويقتفون أثرها، ولو استغنى أحد عن القدوة لكان هو نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم، إذ له من الكمال البشري ما لا يلحقه فيه لاحق، ولا سبقه إليه سابق؛ وذلك بما أكرمه الله تعالى به من النبوة والاصطفاء، ومع ذلك: أمره الله بالاقتداء بإخوانه الأنبياء فقال له: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾{الأنعام:90}، فإذا لم يقتدِ الأفراد والمجتمعات بالقدوات الحسنة، نُصبت له قدوات سيئة كانوا لهم مقتدين، ولآثارهم مقتفين.

ومن هنا: حذر الله سبحانه وتعالى الخلائق من اتخاذ تلك النماذج السيئة قدوات يتبعونهم، ويهتدون بهديهم، وبيّن لهم سبحانه مغبة ذلك الاقتداء.

وهذه القدوات السيئة أصناف متعددة، فقد تكون القدوة ذاتاً -كـ(فرد) أو(جماعة)-، وقد تكون معنىً -كـ(الهوى) و(الشبهة)؛ وبيانُها في الآتي:

أولاً: إبليس – لعنه الله-:

منذ أن خلق الله تعالى أبانا آدم عليه السلام وكرمّه وأمر الملائكة بالسجود له حسده إبليس -لعنه الله- وناصبه العداء، وسعى -جهدَه- في إغوائه وإغواء ذريته، وقد ورد ذكره -نعوذ بالله منه- **في أحد عشر موضعاً،** فحذّر الله تعالى آدم عليه السلام وذريته من اتباعِ إبليس الرجيم وذريتِه الشياطين؛ واتخاذهم أولياء من دون الله، وبيّن لهم عواقب ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾﴾ {طه:116-117}، ويا لله ما أشدها من عاقبة، وما أعظمها من خاتمة، وهي الإخراج من الجنة ثم الشقاء، قال ابن جرير الطبري -رحمه الله-: «يقول -تعالى ذكره- مُعلما نبيّه محمداً صلى الله عليه وسلم، ما كان من تضييع آدم عهدَه ومُعَرِّفُه بذلك: أن ولده لن يعدوا أن

1. «التحرير والتنوير»، ابن عاشور (13/19).

يكونوا في ذلك على منهاجه، إلا من عصمه الله منهم... فلا تطيعاه فيما يأمركما به، فيخرجكما -بمعصيتكما ربكما، وطاعتكما له- ﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾»[1]؛ وقال ابن كثير -رحمه الله-:«﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ أي: إياك أن يسعى في إخراجك منها، فتتعب وتعنى وتشقى في طلب رزقك، فإنك هاهنا في عيش رغيد هنيء، لا كلفة ولا مشقة»[2].

وربنا تعالى إنما حكى لنا قصته مع أبينا آدم عليه السلام لنحذر ونعتبر، قال الرازي -رحمه الله-: «اعلم أن المقصود من ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام حصول العبرة لمن يسمعها، فكأنه تعالى لما ذكر قصة آدم وبيّن فيها شدة عداوة الشيطان لآدم وأولاده: أتبعها بأن حذّر أولاد آدم من قبول وسوسة الشيطان»[3].

ومن أثر اتباع الشيطان على المجتمعات: **حلول النكبات ونزول الهلاك والمدلهمات، وذلك ظاهر في قصة سبأ، فلما حكى الله ما أحلّ بهم من** الدمار والهلاك قال في آخر القصة: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ {سبأ:20}، فإن إبليس لما أقسم بعزة الله ليغوينهم أجمعين ظنّ أن فريقاً منه سيتبعونه، فاتبعوه فصدق ظنه فيهم.

وأما طريق السلامة منه فبكثرة الاستعاذة منه، وباتخاذه عدواً كما أمر الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ {فاطر:6} قال القشيري -رحمه الله-: «ودليل هذا الخطاب: إن الشيطان عدوّكم فأبغضوه واتخذوه عدوا» وقال: «عداوة الشيطان بدوام مخالفته، فإنّ من الناس من يعاديه بالقول ولكن يوافقه بالفعل، ولن تقوى على عداوته إلا بدوام الاستغاثة بالربّ، وتلك الاستغاثة تكون بصدق الاستعانة؛ والشيطان لا يفتر في عداوتك، فلا تغفل أنت عن مولاك لحظةً فيبرز لك عدوّك فإنه أبداً متمكّن لك»[4].

وقال ابن كثير -رحمه الله-: «الله تعالى يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه، ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى الموادّة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة؛ إذ لا يقبل مصانعة ولا إحسانا ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم، لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ {الأعراف:27} وقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ {فاطر:6} وقال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ {الكهف:50}، وقد أقسم للوالد إنه لمن الناصحين وكذب؛ فكيف معاملته لنا وقد قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ {ص:83} وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ

1. «جامع البيان»، الطبري (185/16).
2. «تفسير القرآن العظيم»، ابن كثير (2297/5).
3. «التفسير الكبير»، الرازي (223/14).
4. «لطائف الإشارات»، القشيري (193/3).

﴿لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾ {النحل:99} »[1].

فإبليس كما وصفه ابن القيم -رحمه الله-: «شيخ الضلال وداعي الكفر وإمام الفجرة إبليس عدو الله، قد علم أمر الله له بالسجود لآدم، و لم يشك فيه، فخالفه وعاند الأمر، وباء بلعنة الله وعذابه الدائم»[2]؛ فمن علمَ مَنْ هذا وصفه كيف يقتدي به؟ فضلاً عن أن يتبعه ويتخذه إماماً له! نعوذ بالله من همزه ونفخه ونفثه.

ثانياً: فرعون – لعنه الله-:

أكثر قصة تكررت في القرآن هي قصة موسى عليه السلام وبني إسرائيل مع طاغية زمانهم فرعون-لعنه الله-، الذي بلغ به الطغيان أن قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ {النازعات:24}، وقال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ {القصص:38} ودعا الناس إلى عبادة نفسه من دون الله، ولا شك أن هذا أخطر أنواع الاتباع والاقتداء، ومع ذلك اتبعه قومه فاتخذوه إلهاً كما قال سبحانه: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ﴾ {الزخرف:54}، فيتبين منه -بجلاء- خطر القدوة السيئة، إذ إنه بزخرف قوله، وتلبيس فعله، قد يستخف الناس فيطيعونه ويتبعونه؛ كما قيل[3]:

تقول هذا مجاج النحلِ تمدحه
وإنْ تَعِبْ قلتَ ذا قيءُ الزنابيرِ
مدحاً وذماً وما جاوزت وصفهما
سحرُ البيانِ يُري الظلماءَ كالنور

وهذا ما حصل لقوم فرعون، فإن الله تعالى لما أرسل إليهم الآيات، وكل آية هي أكبر من أختها نادى فرعون في قومه قائلاً: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٥١ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ٥٢ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ٥٣ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤﴾ {الزخرف:51-54}، فاستخف قومه بهذه الحجج الواهية، والشبهات الضعيفة فأطاعوه واتبعوه، كما قال ابن جرير الطبري -رحمه الله-: «يقول تعالى ذكره: فاستخف فرعون خلقاً من قومه من القبط، بقوله الذي أخبر الله تبارك وتعالى عنه أنه قال لهم، فقبلوا ذلك منه فأطاعوه، وكذبوا موسى»[4].

وورد ذكر فرعون وآله في أربع وسبعين موضعاً من القرآن، وما ذاك إلا لعظيم جرمه وشدة خطره، وكثرة طرقه في الضلال والإضلال، كما أنه يمثل أنموذجاً للطواغيت في كل زمان ومكان، فكل تحذير منه يعد تحذيراً من نظائره وأشباهه الذين يصدون عن سبيل الله. فأرسل الله تعالى موسى عليه السلام وشد عضده بأخيه هارون عليه السلام فدعاه إلى الله

1. «تفسير القرآن العظيم»، ابن كثير (137/1).
2. «مفتاح دار السعادة»، ابن القيم (250/1).
3. القائل ابن الرومي كما في «ديوانه» (169/2). والبيت هو كما أوردته في ديوانه، إلا أنه اشتهر على وجه آخر وهو: في زخرف القول تزيينٌ لباطلِهِ ... والحقُّ قد يعتريه سوءُ تعبيرِ
4. «جامع البيان»، الطبري (02/ 716).

وحده، وحذره من عاقبة فعله، وحذر الناس من اتباعه، فما آمن لموسى عليه السلام إلا ذرية من قومه كما قال سبحانه: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾{يونس:83}.

ومن رحمة الله بعباده أنه لم يعاجلهم بالعقوبة، بل تابع عليهم الآيات ونوّعها لعلهم يهتدون ويرجعون، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ {الإسراء:101} وقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ {الأعراف:133} وقال: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ {الزخرف:48}، فبانت لهم المحجة وقامت عليهم الحجة فاستحقوا العذاب في الدور الثلاثة: الدار الدنيا ودار البرزخ والدار الآخرة، كما قال سبحانه: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾{الأعراف:137}، وقال: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ {غافر:46}.

وقد بيّن الله تعالى لنا عاقبة اتباع فرعون في الآخرة فقال سبحانه: ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ {هود:98}، قال الماتريدي -رحمه الله-: «وقوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ قال بعضهم: **أي: صار قُدامهم**، وقال بعضهم: يقدم أي: يقود قومه إلى النار حتى يوردهم النار؛ ويحتمل قوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ أي: يكون إمامًا لهم يوم القيامة يتبعون أثره، كما كان إمامهم في الدنيا فاتبعوه؛ كقوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ﴾ {الإسراء:71}، وكقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ﴾ {القصص:41} أخبر أنهم يكونون أئمة لهم في الآخرة»[1].

فالتحذير هنا من اتباع الطواغيت -كفرعون وأمثاله- ظاهر جداً، وعاقبة ذلك أنه يوردهم النار ويكون مقدمهم وقائدهم إليها، وكفى بهذا زاجراً وواعظاً لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وقال الماتريدي: «وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ {هود:97} أي: ليس بهدى؛ بل كان أمره ضلالا؛ حيث كان هو ضالا مضلا»[2]، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ {طه:79} فإذا جمع مَنْ كان قدوة بين الضلال في نفسه والإضلال لغيره كان خطره أعظم.

وأما أثر اتباع فرعون وأمثاله على المجتمع في الدنيا **-فكما تقدم في الآية- هو دمار الديار وخرابها**، قال سبحانه: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ {الأعراف:137}، وقال: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾

1. «تأويلات أهل السنة»، الماتريدي (179/6).
2. «تأويلات أهل السنة»، الماتريدي (6/ 178).

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾ {الفجر: 10- 14}.

وهلاك الديار والمجتمعات المعرضة عن اتباع الرسل، والمتبعة لفرعون وأمثاله، سنة ربانية لا تتغير ولا تتبدل، فهذا دأبهم وهذا جزاؤهم كما في قوله سبحانه: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١١﴾ {آل عمران:11}، قال مجاهد -رحمه الله-: «﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ كفِعْل آل فرعون، كشأن آل فرعون»[1]، وقال عبدالرحمن بن زيد -رحمه الله-: «﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ كأعمالهم، كفعلهم، كتكذيبهم حين كذبوا الرسل؛ وقرأ قول الله: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ {غافر:31} أن يصيبكم مثل الذي أصابهم عليه من عذاب الله»[2]، فكل من اقتفى أثرهم وسار على نهجهم قاده ذلك إلى هاويتهم وسوء خاتمتهم؛ وقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾ {المزمل:16} يعني: وأنتم إن عصيتم رسولكم، كما عصى فرعون رسوله فسنأخذكم أخذاً وبيلاً كما أخذناه، قال الطاهر ابن عاشور -رحمه الله-: «والمقصود من هذا الخبر: التعريض بالتهديد أن يصيبهم مثل ما أصاب أمثالهم ممن كذبوا الرسل... ثم قال: وتنكير ﴿رَسُولٗا﴾ المرسل إلى فرعون، لأن الاعتبار بالإرسال، لا بشخص المرسل، إذ التشبيه تعلق بالإرسال في قوله: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾، إذ تقديره: كإرسالنا إلى فرعون رسولاً؛ وتفريع ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾ إيماء إلى أن ذلك هو الغرض من هذا الخبر، وهو التهديد بأن يحل بالمخاطبين لما عصوا الرسول صلى الله عليه وسلم مثل ما حل بفرعون»[3]. نسأل الله السلامة والعافية.

ثالثاً: الآباء الضالون:

إن مما لا شك فيه أن من أخطر القدوات السيئة: الآباء الضالين، لأنهم أقرب الناس لأبنائهم وأشدهم تأثيراً عليهم، وأكثرهم مظنةً في الاقتداء.

وكان من أكبر أسباب ضلال الكفار وإعراضهم عن الاستجابة لدعوة الرسل -عليهم السلام- هو الاقتداء بآبائهم، كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ {الزخرف:23}، وتأمل هذا التعبير القرآني وما فيه من ألفاظ العموم تجد أن هذه الشبهة متوارثة بين الأمم في كل القرى، فما بعث الله تعالى رسولاً إلى قوم إلا كانت حجتهم الداحضة: الاقتداء بآثار آبائهم، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ فرد الله عليهم حجتهم بقوله سبحانه: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ {البقرة:170}، وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا

1. رواه ابن جرير في «جامع البيان» (236/5).
2. رواه ابن جرير في «جامع البيان» (236/5).
3. «التحرير والتنوير»، ابن عاشور (273/29).

﴿يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ {المائدة:104}.

وقد قطع الله عليهم حجتهم، وأخبر أنها لا تنفعهم يوم القيامة، قال الواحدي -رحمه الله- في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ {الأعراف:173}: «﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ﴾ أيها الذرية محتجِّين يوم القيامة: ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: قبلنا ونقضوا العهد ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ صغاراً فاقتدينا بهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ أَفَتُعَذِّبنا بما فعل المشركون المكذِّبون بالتوحيد، وإنما اقتدينا بهم وكنا في غفلة عن الميثاق؟! وهذه الآية قطعٌ لمعذرتهم، فلا يمكنهم الاحتجاج بكون الآباء على الشرك بعد تذكير الله بأخذ الميثاق بالتوحيد على كلِّ واحد من الذُّريَّة»[1].

ومن الأمثلة على ذلك: قوم إبراهيم عليه السلام، فإنه لما دعاهم إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام والعكوف عليها، ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ {الأنبياء:53} «فأجابوه بأنَّهم وجدوا آباءَهم يعبدونها، **فاقتدوا** بهم وقلدوهم في عبادتها، فأجابهم إبراهيم عليه السلام بأنَّهُم -في تقليد الآباء- كانوا في ضلال مبين بعبادة الأصنام»[2].

والاقتداء بالآباء الضالين له أثر وخيم على المجتمع، فقد أخبرنا الله تعالى عن مجتمعات انتشرت فيها الفواحش وكانت حجتهم الاقتداء بالآباء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ {الأعراف:28} فيرتكبون الفواحش تقليداً لآبائهم، فبئست القدوة التي تقود إلى الفحشاء والضلال والكفر.

والله سبحانه قد نصب الأدلة على التوحيد، فلا عذر لهم في الإعراض عنه، والتمسك بما كان عليه الآباء، تقليداً لهم وتبعية، كما لا عذر لآبائهم في الشرك[3]، فأنكر عليهم سبحانه بالاستفهام الإنكاري فقال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ {المائدة:104} قال البيضاوي -رحمه الله-: في الآية: «بيان لقصور عقولهم وإفهامكهم في التقليد، وأنْ لا سند لهم سواه، ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ الواو للحال، والهمزة دخلت عليها لإنكار الفعل على هذه الحال، أي: أحَسْبُهم ما وجدوا عليه آباءهم ولو كانوا جهلة ضالين؟! والمعنى: أن **الاقتداء** إنما يصح بمن علم أنه عالم مهتد وذلك لا يعرف إلا بالحجة فلا يكفي التقليد»[4].

رابعاً: خليل السوء:

في الغالب أن كل إنسان يتأثر بما يصاحب، والطباع سرّاقة، والطيور على أشباهها تقع، وقد ضرب الله لنا مثلاً بالصحبة الصالحة في قصة أبي بكر رضي الله عنه مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار، وفي غيرها من المواقف،

1. «الوجيز»، الواحدي (ص421).
2. «البسيط»، الواحدي (104/15).
3. انظر: «الكشاف»، الزمخشري (132/2).
4. «أنوار التنزيل»، البيضاوي (146/3).

وبيّن لنا أثر الصحبة والخلة السيئة، وسوء عاقبتها يوم القيامة، إذ تنقلب حسرة وندامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ {الفرقان:27-29}، وهذا التعبير القرآني البليغ يبين لنا عظم تلك الندامة إذ بلغت بصاحبها أن يعض على يديه، قال الشوكاني -رحمه الله-: «الظاهر أن العض هنا حقيقة، ولا مانع من ذلك ولا موجب لتأويله؛ وقيل: هو كناية عن الغيظ والحسرة، والمراد بالظالم: كل ظالم يرد ذلك المكان وينزل المنزل، ولا ينافيه ورود الآية على سبب خاص، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»[1]، وقال أيضاً: «الندم وإن حل القلب فأثره يظهر في البدن، لأن النادم يعض يده ويضرب إحدى يديه على الأخرى، قال الله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ {الكهف:42}، ومنه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ {الفرقان:27} أي: من الندم، وأيضا: النادم يضع ذقنه في يده»[2]، فمن أغراض الكلام عند العرب أن يصحبوها بحركات بالجسد يظهر بها شدة التأثر[3]، فالموقف اشتمل على الندامة العظيمة والاعتراف بمغبة الاتباع والاقتداء بذلك الخليل السيئ وأنه سبب للضلال والصد عن اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم.

وهذا التأثير واقع على الفرد وعلى المجتمع، إذ إن كثيراً من العلاقات الاجتماعية مبناها على الصحبة والخلة والصداقة، بل إنها من أقوى الروابط الاجتماعية، وكم مِن الناس مَنْ يُقَدِّم رأي صاحبه على رأي أبويه وإخوته، ويقتدي به أكثر منهم، كما قيل:

عن المرْءِ لا تَسألْ وسَلْ عن قَرينه
فكُلُّ قَرينٍ بالمُقَارنِ يقْتَدي[4]

فالواجب على المرء النظر فيمن يخالل ومن يصاحب، حتى لا يوقع صحبته موقعاً يورثه الندم، قال ابن عاشور -رحمه الله-: «فلا ينبغي أن يضع المرء خلته إلا حيث يوقن بالسلامة من إشارات السوء»[5].

وكل خلّة وصداقة ليست مبنية على التقوى والخير فإنها تنقلب عداوة يوم الدين، كما قال سبحانه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ {الزخرف:67} روى الطبري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: «فكل خلة هي عداوة، إلا خلة المتقين»[6].

خامساً: الغافلون:

الغفلة عرفها الراغب الأصفهاني -رحمه الله-: بأنها: «سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ، يقال: غَفَلَ، فهو غافل»[7]، والغفلة متاهة يضيع فيها الإنسان عن إدراك الحق، ولها من اسمها نصيب، ففي اللغة: يُطلق

1. «فتح القدير»، الشوكاني (97/4).
2. «فتح القدير»، الشوكاني (352/2).
3. انظر: «التحرير والتنوير»، ابن عاشور (12/19).
4. البيت لطرفة بن العبد، كما في «ديوانه» (ص32).
5. «التحرير والتنوير»، ابن عاشور (15/19).
6. «جامع البيان»، الطبري (640/20).
7. «المفردات»، الأصفهاني (ص609)، مادة: غفل.

على الأرض التي لا منار فيها ولا مَعلَم: أرض غُفل[1]؛ فبين الغفلة المعنوية والغفلة الحسية مناسبة ظاهرة، وكأن غفلة القلب المعنوية شُبهت بالأرض الغُفل المشاهدة.

ولأن الطاعة تدعو إلى الاقتداء جاء النص صريحاً بالنهي عن طاعة الغافل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ {الكهف:28}، ففي تذييل الآية بجملة ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ إشارة إلى علة من علل النهي عن ذلك، فإن طاعتك أيها الإنسان لمن كان أمره فرطاً تجعل أمرك أنت كذلك فرطاً؛ قال السعدي -رحمه الله-: «﴿وَكَانَ أَمْرُهُ﴾ أي: مصالح دينه ودنياه ﴿فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ أي: ضائعة معطلة؛ فهذا قد نهى الله عن طاعته، لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به، ولأنه لا يدعو إلا لما هو متصف به»[2].

وللغفلة أضرار عدة، من أعظمها أنها تطمس نور القلب عن رؤية الحق فيصدأ كما يصدأ النحاس والفضة، كما قال ابن القيم -رحمه الله-: «ولا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما...فإذا تراكم عليه الصدأ واسودّ وركبه الران، فسد تصوره وإدراكه؛ فلا يقبل حقا ولا ينكر باطلا، وهذا أعظم عقوبات القلب.

وأصل ذلك من الغفلة، واتباع الهوى؛ فإنهما يطمسان نور القلب، ويعميان بصره، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ {الكهف:28}، فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل فلينظر: هل هو من أهل الذكر، أو هو من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة وأمره فرط، لم يقتد به و لم يتبعه»[3].

وأما أثر الاقتداء بالغافل على المجتمع، فلا يكاد يخفى، فما بالك بمجتمعٍ قدوتهُ غافلٌ فَرطَ أمر دينه ودنياه وكان في غاية الضياع، كيف يكون حاله؟! فالغافل لا يُخَرِّج للمجتمع إلا غافلين مثله، وقد نُهي النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يكون من الغافلين، والنهي له نهيٌ لنا، فهو أسوتنا صلى الله عليه وسلم وإمامنا، قال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ {الأعراف:205} قال أبوحفص النسفي-رحمه الله-: «وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ خاطبه صلى الله عليه وسلم وأراد به أمته؛ أي: لا تقتدوا بالغافلين»[4].

ثم مدح الله سبحانه الملائكة بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ {الأعراف:206}، قال ابن كثير -رحمه الله-: «وإنما ذكرهم بهذا ليُتشبَّه بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم»[5]، فتأمل! كيف نهى الله عن الاقتداء بالغافلين، ثم أشار بعدها إلى الاقتداء

1. انظر: «لسان العرب»، ابن منظور (11/14)، مادة غفل.
2. «تيسير الكريم الرحمن»، السعدي (ص546).
3. «الوابل الصيب»، ابن القيم (ص92).
4. «التيسير في التفسير»، النسفي (113/7).
5. «تفسير القرآن العظيم»، ابن كثير (1538/4).

بالطائعين العابدين؟! فهم أهل للقدوة، لا أولئك الغافلون.

وفي الآية بيان لسبيل السلامة من داء الغفلة، فدواؤه: كثرة ذكر الله تعالى، وترك مجالسة الغافلين، إذ أمر الله سبحانه في الآية بذكره بالغدو والآصال (وهي العشي)[1]، وفي الآية السابقة –وهي قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ {الكهف:28}–أمر بالصبر مع المؤمنين العُبّاد المنيبين الذاكرين الله بالغداة والعشي، فالذي ينبغي أن يطاع ويقتدى به هو من امتلأ قلبه بمحبة الله، ولهج لسانه دوماً بذكره سبحانه[2]. فجمعت الآيتان بين وصف الداء وبيان الدواء، على أكمل وجه وأتم بيان.

سادساً: الكفار والمنافقون:

لقد فرض الله تعالى علينا أن نسأله كل يوم أن يهدينا الصراط المستقيم، وأن يجنبنا طريق المغضوب عليهم والضالين، وسائر الكفار والمنافقين، وذلك بفرض قراءة الفاتحة في الصلاة، وفيها قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ {الفاتحة:6-7} أي: وفقنا وثبتنا، ودلنا وأرشدنا يا ربنا إلى الصراط المستقيم، وجنبنا طريق المغضوب بهم كاليهود وأمثالهم، والضالين كالنصارى وأمثالهم[3]، ثم جاء مطلع سورة البقرة ليبين أن الناس ثلاثة أقسام: المتقون، والكفار، والمنافقون، وجاءت بقية السورة لمحاجة اليهود –وأخص صفاتهم: أنهم مغضوب عليهم–، وجاءت سورة آل عمران لمحاجة النصارى –وأخص صفاتهم أنهم ضالون–؛ ففاتحة القرآن وأطول سورتين فيه تبين مقصداً عظيماً من مقاصد الإسلام وهو مخالفة هؤلاء الكفار والمنافقين جميعاً، والتحذير من الاقتداء بهم وطاعتهم؛ وعلى هذا: فمن أراد الهداية إلى الصراط المستقيم فعليه بمخالفة أصحاب الجحيم بأصنافهم كلها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: «ومنذ بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم، وهاجر إلى المدينة، صار الناس ثلاثة أصناف: **مؤمن ومنافق وكافر**»[4].

وقال أيضاً: «واعلم أن في كتاب الله من النهي عن مشابهة الأمم الكافرة وقصصهم التي فيها عبرة لنا بترك ما فعلوه كثيراً... ثم متى كان المقصود بيان أن مخالفتهم في عامة أمورهم أصلح لنا؛ فجميع الآيات دالة على ذلك؛ وإن كان المقصود أن مخالفتهم واجبة علينا، فهذا إنما يدل عليه بعض الآيات دون بعض»[5].

إذن! جميع ما قصه الله في كتابه عن سوء العاقبة التي تلحق بالكفار والمنافقين عاجلاً أو

1. كما فسرها به مجاهد وقتادة. انظر: «جامع البيان»، الطبري (670/10).

2. انظر: «تيسير الكريم الرحمن»، السعدي (ص546).

3. انظر: «جامع البيان»، الطبري (9171/1)؛ و«تفسير القرآن العظيم»، ابن كثير (061/1-261).

4. «اقتضاء الصراط المستقيم»، ابن تيمية (401/1).

5. «اقتضاء الصراط المستقيم»، ابن تيمية (301/1).

آجلاً إنما تضمن ذلك التحذير من الاقتداء بهم، لئلا يصيبنا مثل ما أصابهم، فنهانا الله تعالى عن مشابهتهم، وأمرنا سبحانه ألا نكون مثلهم في آيات عدة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ {آل عمران:105} وهم اليهود والنصارى، فافترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة[1].

قال ابن أبي زمنين -رحمه الله-: «﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟﴾ هم أهل الكتاب، يقول: لا تفعلوا كفعلهم»[2]، وقال مكي بن أبي طالب -رحمه الله-: «حذر الله المؤمنين أن يكونوا مثل اليهود الذين اختلفوا في كتابهم وتفرقوا فرقاً»[3].

ونهي الإنسان عن أن يكون مثل فلان هو نهي عن الاقتداء به، وعن مماثلته بأي وجه من الوجوه، كما بيّن هذا شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- فقال: «قوله: **لا تكن مثل فلان قد يعم مماثلته** بطريق اللفظ أو المعنى، وإن لم يعم: دل على أن جنس مخالفتهم وترك مشابهتهم، أمر مشروع؛ ودل على أنه كلما بعُد الرجل عن مشابهتهم فيما لم يشرع لنا، كان أبعد عن الوقوع في نفس المشابهة المنهي عنها، وهذه مصلحة جليلة»[4].

وقد تكرر هذا النهي في مواضع عدة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ {الأنفال:21} قال الثعلبي -رحمه الله-: «يعني المنافقين والمشركين الذين سمعوا كتاب الله بآذانهم فقالوا: ﴿سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ يعني: لا يتّعظون بالقرآن ولا ينتفعون بسماعهم، فكأنهم لم يسمعوه على الحقيقة»[5]، وقال القشيري -رحمه الله-: «لا تكونوا ممن يشهد جهرا، ويجحد سرّا»[6].

وكما في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ {الأنفال:47} وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ {الحشر: 19}

ولا شك أن تقليد الكفار والاقتداء بهم فيه مفاسد عظيمة، فالمشابهة في الظاهر قد تقود إلى المحبة والمشابهة في الباطن.

ومن أعظم آثاره على الفرد: أن الاقتداءَ والتشبه بهم مظنةُ الحشرِ معهم والدخول في زمرتهم يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ {الصافات:22}، قال ابن عباس -رضي الله عنهما- : «يعني: أتباعهم، ومن أشبههم من الظَّلَمة»[7] وقال

1. جاء هذا عن الحسن والربيع بن أنس وغيرهما، انظر: «جامع البيان»، الطبري (366/5)؛ و«تفسير القرآن العظيم»، ابن أبي حاتم، (827/3)؛ وقال الواحدي في «البسيط» (284/5): «هذا قول أكثر المفسرين».
2. «تفسير القرآن العزيز»، ابن أبي زمنين (903/1).
3. «الهداية الى بلوغ النهاية»، مكي بن أبي طالب (9801/2).
4. «اقتضاء الصراط المستقيم»، ابن تيمية (101/1).
5. «الكشف والبيان»، الثعلبي (75/31).
6. «لطائف الإشارات»، القشيري (316/1).
7. رواه الطبري في «جامع البيان» (025/91).

السعدي -رحمه الله-: «وأشباههم»[1]، وقال ابن زيد -رحمه الله-: «أزواجهم في الأعمال، وقرأ: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩﴾ {الواقعة:7-9} فالسابقون زوج، وأصحاب الميمنة زوج، وأصحاب الشمال زوج، قال: «كل من كان من هذا: حشره الله معه»[2]؛ فمن شابه وقلد أحداً في أعماله حُشر معهم يوم القيامة.

وأما أثر الاقتداء بالكفار والمنافقين على المجتمع فهو انحطاط من الدرجة العليا إلى السفلى، والرضا بالهون والدون والتبعية، وطمس للسمات والشخصية الإسلامية، وتنازل عن العزة والمكانة التي شرفهم الله وكرمهم بها، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۝١٣٩﴾ {النساء:139} وقال عن المنافقين: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾ {المنافقون:8} وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ﴾ {فاطر:10}، فالله أراد لنا أن نكون متبوعين لا تابعين، ومقتدى بنا، لا أن نقتدي بغيرنا، قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ {البقرة:143} قال السعدي -رحمه الله-: «أي: عدلا خيارا، وما عدا الوسط، فأطراف داخلة تحت الخطر، فجعل الله هذه الأمة وسطا في كل أمور الدين... ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط، يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان، ولا يحكم عليهم غيرهم»[3]، فهذه هي المكانة اللائقة بالمجتمع المسلم أن يكون حاكماً لا محكوماً، ومتبوعاً لا تابعاً.

وكذلك تقليدهم ومشابهتهم في أعمالهم سبب لحلول المثلات والعقوبات، كما قال نبي الله شعيب عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ۝٨٩﴾ {هود:89}، وقال سبحانه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ﴾ {الرعد:6} قال مقاتل بن سليمان -رحمه الله-: «﴿ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ يعني العقوبات في كفار الأمم الخالية، فسينزل بهم ما نزل بأوائلهم»[4].

سابعاً: السادة والكبراء الضُّلال:

من سنن الله تعالى أن يبتلي بعض الناس ببعض، ويجعلهم درجات متفاوتة في القوة والضعف، كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ﴾ {الفرقان:20} قال عكرمة -رحمه الله-: «هو التفاضل في الدنيا، والقدرة، وقهر بعضكم لبعض، فهي الفتنة التي قال الله»[5]، فالقوي والمقدّم والسيد والكبير قد يبتلي من دونه بأنواع من الابتلاء، فإما أن يكرهه على الشر-من كفر وبدع ومعاصٍ-، وإما أن هذا الضعيف قد يُعجب بما عليه السيد والكبير

1. رواه الطبري في «جامع البيان» (520/19).
2. رواه الطبري في «جامع البيان» (520/19).
3. «تيسير الكريم الرحمن»، السعدي (ص66).
4. «تفسير مقاتل بن سليمان»، مقاتل (368/2).
5. رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (2675/8).

فيقتدي به، فيكون قدوة له إما اضطراراً أو اختياراً، فيجني مغبة ذلك الاقتداء، ويندم يوم اللقاء، ويكثر بينهم الخصام، ويتبرأ كلٌّ من الآخر، كما أخبرنا الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ {البقرة:166-167}، قال أبو العالية والربيع بن أنس-رحمهما الله-: «فقالت الأتباع: لو أن لنا كرة إلى الدنيا فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا»[1].

وهذا يُظهر أثر الاقتداء بالسادة والكبراء الضُّلال في الباطل؛ فالضلال في الدنيا، والندم والخسارة في الآخرة؛ وما أشد ذلك الندم حين يطلب الأتباع من المتبوعين أن يتحملوا عنهم شيئاً من العقاب أو أن يغنوا عنهم شيئا من العذاب، فيقرون حينها بأنهم كانوا ضالين في أنفسهم، فكيف يهدون غيرهم؟! قال سبحانه: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ {إبراهيم:21} وقال: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ {غافر:47-48} قال مقاتل بن سليمان -رحمه الله-: «ثم أخبر عن خصومتهم في النار، فقال: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ يعني: يتخاصمون؛ ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ عن الإيمان، وهم القادة: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في دينكم؛ ﴿فَهَلْ أَنتُم﴾ يا معشر القادة ﴿مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ باتباعنا إياكم؟»[2]، وقال الطبري -رحمه الله-: «وإذ يتخاصمون في النار... فيقول الضعفاء منهم وهم المُستَتْبَعون على الشرك بالله ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ تقول لرؤسائهم الذين اتبعوهم على الضلالة: إنا كنا لكم في الدنيا تبعاً على الكفر بالله، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ اليوم ﴿عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ يعنون: حظاً فتخففوه عنا، فقد كنا نسارع في محبتكم في الدنيا، ومن قِبلكم أُتينا، لولا أنتم لكنا في الدنيا مؤمنين، فلم يصبنا اليوم هذا البلاء»[3].

فيبادر المتبوعون المستكبرون بإنكار تلك العلاقة وجحد ذلك الاتباع، ويرجعون بالتهمة على الأتباع بأن الإجرام كان من قِبل أنفسهم، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ {سبأ:32} قال القرطبي -رحمه الله-: «في موقف الحساب، يتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب بعد أن كانوا في الدنيا أخلاء متناصرين... ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ هو استفهام بمعنى

1. قول أبي العالية: رواه ابن أبي حاتم في «تفسير القرآن العظيم» (279/1)؛ وقول الربيع: رواه الطبري في «جامع البيان» (31/3).

2. «تفسير مقاتل بن سليمان»، مقاتل (716/3).

3. «جامع البيان»، الطبري (341/20).

الإنكار، أي: ما رددناكم نحن عن الهدى، ولا أكرهناكم ﴿بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۡۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢﴾ أي: مشركين مصرين على الكفر»[1]، وقال البيضاوي -رحمه الله-:«أنكروا أنهم كانوا صادّين لهم عن الإيمان وأثبتوا أنهم هم الذين صدوا أنفسهم حيث أعرضوا عن الهدى وآثروا التقليد عليه»[2].

فالاقتداء بالسادة والكبراء الضالين من أسباب ضلال الفرد والمجتمع، وإن كان خطرهم على المجتمعات أكبر، لأن تأثيرهم أكثر، وقد بيّن الله سبحانه عظيم خطر الاقتداء بالسادة والكبراء الضالين وطاعتهم في قوله تعالى: «﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧﴾{الأحزاب:67}، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم -رحمه الله-: في قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ قال: «هم رؤوس الأمم الذين أضلوهم»[3]؛ وقال السعدي -رحمه الله-: «﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ وقلدناهم على ضلالهم، ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧﴾»[4]، فتقليد السادة والكبراء الضالين يصد عن الهدى، ويسوق إلى الردى لأنهم كما قال الماتريدي -رحمه الله-: «يدعون الناس إلى ما يوحي إليهم الشياطين، والرسل كانوا يدعون إلى ما يوحي إليهم الله تعالى»[5]، ويخبر الله تعالى عنهم إذ يختصمون في النار أنهم يعترفون بجُرم الاقتداء بهؤلاء الضالين فيقولون: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٩٩﴾ {الشعراء:99} قال الزمخشري -رحمه الله-: «والمراد بالمجرمين الذين أضلوهم: رؤساؤهم وكبراؤهم، كقوله: «﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧﴾ وعن السدي: الأوّلون الذين اقتدينا بهم»[6]، وكذا قاله محمد بن السائب -رحمه الله-[7].

ثامناً: الهوى والشبهة:

إن اتباع الهوى والشبهات وابتغاء الفتنة من أعظم ما يُخل بنظر الإنسان وميزانه، فلا يزن الأمور بميزانٍ صحيح، وستصدر أحكامُه عليها منكوسة رأساً على عقب، فيرى الحق باطلاً، والباطل حقاً، فالهوى يهوي به في النار، والشبهة تُشَبِّه عليه الحق فيتركه، والفتنة تُعميه وتصمه إن إصابته فاستحكمت عليه.

وقد سمى الله تعالى اتباع الهوى تألهاً وعبودية، وذلك لشدة خطره وعظيم تأثيره فقال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾ {الجاثية:23}، وتأمل في فعله أولاً، ثم في عواقبه ثانياً، فهو الذي ابتدأ الزيغ والانحراف باتخاذه إلهه هواه، يطيعه كما

1. «الجامع لأحكام القرآن»، القرطبي (316/17).
2. «أنوار التنزيل»، البيضاوي (248/4).
3. رواه الطبري في «جامع البيان» (189/19).
4. «تيسير الكريم الرحمن»، السعدي (ص790).
5. «تأويلات أهل السنة»، الماتريدي (496/4).
6. «الكشاف»، الزمخشري (244/3)؛ وقول السدي عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (276/11) إلى ابن أبي حاتم.
7. انظر: «الكشف والبيان»، الثعلبي (80/20).

يطيع العبدُ سيدَه ولا يخالف أمره، فيضله الله بعدله، جزاءً وفاقا لفعله، وما ربك بظلام للعبيد، ثم يطبع على سمعه فلا يسمع ما ينفعه، وعلى قلبه فلا يدخله النور والهدى، وعلى بصره فلا يرى الحق، فتتعطل منافع هذه الحواس فلا يستعملها فيما ينفعه.

قال ابن كثير -رحمه الله-: «﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾أي: إنما يأتمر بهواه، فمهما رآه حسناً فعله، ومهما رآه قبيحاً تركه... وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يحتمل قولين:

أحدها: وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك؛ والآخر: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجة عليه؛ والثاني يستلزم الأول، ولا ينعكس؛ ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ أي: فلا يسمع ما ينفعه، ولا يعي شيئا يهتدي به، ولا يرى حجة يستضيء بها؛ ولهذا قال: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ كقوله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ {الأعراف:186}»[1]، ولهذا قيل: إن اتباع الهوى هو: ما تميل إليه النفس مما لم يبحه الشرع، فهو دائماً خلاف مقصود الشرع؛ لأن المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلّف عن داعية هواه؛ حتى يكون عبداً لله اختياراً، كما هو عبد لله اضطراراً[2].

وأما اتباع الشبهات وابتغاء الفتنة فقد جاء التحذير منه في قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ {آل عمران:7} عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: «تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمى الله، فاحذروهم»[3]، وقال ابن كثير -رحمه الله-: « ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي: ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ أي: إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها، لاحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه؛ لأنه دامغ لهم وحجة عليهم، ولهذا قال: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي: الإضلال لأتباعهم، إيهاما لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهذا حجة عليهم لا لهم»[4]؛ والعبد لا ينتفع يوم القيامة إن لم يكن قلبه سليماً، وهذه الشبهات والأهواء تفسد القلب

1. «تفسير القرآن العظيم»، ابن كثير (3179/7).

2. انظر: «اتباع الهوى»، د. إبراهيم بن عبدالله الزهراني، مقال منشور في موقع «الدرر السنية» عبر الرابط https://cutt.us/EeACt.

3. رواه البخاري في «صحيحه» (34/6)، رقم (4547) كتاب تفسير القرآن، باب ﴿منه آيات محكمات﴾؛ ومسلم في «صحيحه» (56/8)، رقم (2665) كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن.

4. «تفسير القرآن العظيم»، ابن كثير (680/2).

فيصير صاحبه على خطر عظيم، قال ابن القيم -رحمه الله-: «﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ {الشعراء:88-89} فهذا هو السليم من الآفات التي تعتري القلوب المريضة، من مرض الشبهة التي توجب اتباع الظن، ومرض الشهوة التي توجب اتباع ما تهوى الأنفس؛ فالقلب السليم: الذي سلم من هذا وهذا»[1].

وأما خطر اتباع الهوى والشبهات على المجتمع فهو كبير جداً، وهل تفرقت الأمة، وتمزق المجتمع الإسلامي إلا بسبب الهوى والشبهات؟ والتاريخ شاهد على ذلك، فبسبب اتباع الهوى والشبهات خرج الخوارج على عثمان رضي الله عنه فقتلوه، فتفرقت الأمة من ساعتئذٍ إلى اليوم، وقد حذرهم عثمان رضي الله عنه من ذلك -يوم الدار حين دخل عليه الخوارج ليقتلوه- فقال رضي الله عنه: «فوالله لئن قتلتموني لا تصلون جميعا أبدا، ولا تجاهدون عدوا جميعا أبدا، ولتَختلفنّ حتى تصيروا هكذا، وشبك بين أصابعه»[2]، وقال عبدالله بن سلام رضي الله عنه يوم قتل عثمان: «اليوم هلكت العرب»[3]، ثم خرجوا على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقتلوا عدداً من الصحابة الكرام، ولا يزال الخوارج يخرجون على الأمة ويفرقونها بسبب هذه الأهواء والشبهات. نسأل الله السلامة والعافية.

المبحث الثاني: قدوات حسنة جاء النهي عن الاقتداء بها في مواضع خاصة.

تقدم قول ابن تيمية -رحمه الله-: «قوله: **لا تكن مثل فلان قد يعم مماثلته** بطريق اللفظ أو المعنى»، وقد نهى الله سبحانه وتعالى نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم عن أن يكون مثل يونس u في حالٍ خاصة، وموضع خاص، فقال سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ {القلم:48} ولا شك أن يونس عليه السلام من القدوات الحسنة العظيمة فيكفيه أنه نبي مرسل من ربنا سبحانه وتعالى ، ولكنه -في الوقت نفسه- بشر يعتريه ما يعتريهم، فحين دعا قومه لم يقبلوا دعوته، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً، وهذا ليس بمستغرب على أي داعية أن يغضب لله تعالى، حين تُرد دعوته، ولكن مقام النبوة يدعو إلى الصبر على الناس، وعلى ما يلحقه من أذى، فمقام النبي عليه السلام ليس كمقام غيره من الدعاة.

قال يحيى بن سلام -رحمه الله-: «وبلغنا: أن يونس **عليه اسللام** دعا قومه زماناً إلى الله سبحانه وتعالى فلما طال ذلك وأبوا، أوحى الله إليه أن العذاب يأتيهم يوم كذا وكذا، فلما دنا الوقت تنحى عنهم»[4]، وقد ذكر ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه خرج وقد غضب على قومه[5]، وذكر سعيد بن جبير -رحمه الله-: أنه خرج مغاضباً لربه سبحانه

1. «الروح»، ابن القيم (684/2).
2. «الطبقات الكبرى»، ابن سعد (71/3).
3. «الطبقات الكبرى»، ابن سعد (81/3).
4. «تفسير يحيى بن سلام»، يحيى بن سلام (842/2).
5. رواه الطبري في «جامع البيان» (374/16).

وتعالى[1]، ولكنه في كل الأحوال: لم يخرج كراهيةً لحكم الله سبحانه[2]؛ بل عانى من قومه أمراً كبيراً من الأذى والتكذيب فخرج ضجراً وما ظن أن هذا الفعل يوجب ما جرى له بعد ذلك[3]، فالشاهد أنه خرج غاضباً و لم يصبر، فنهى الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم عن أن يفعل فعلَه، وقد اختار الله سبحانه لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم من الفضل والكمالات والدرجات الرفيعة ما لا يلحقه فيها أحد، وهذا يقتضي أن يتحمل من أحمال النبوة ما لا يتحمله غيره، فأمره الله سبحانه بالصبر على قومه فقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ على الأذى ﴿لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ يعني: لقضاء ربك والذي هو آت عليك، ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ يعني: يونس عليه السلام و يقول: لا تضجر كما ضجر، ولا تعجل كما عجل[4]، قال قتادة -رحمه الله-:« ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ لا تكن مثله في العجلة والغضب»[5]، وفي مقابل ذلك قال سبحانه: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ {الأحقاف:35} أي: فاصبر على تكذيب قومك لك، كما صبر أولو العزم من الرسل على ذلك، فإن لك فيهم أسوة حسنة، «فَصَبَّرَ سبحانه نبيّه صلى الله عليه وسلم على ما يناله من قومه من الأذى والمكروه، وعلّمه أن ذلك قد لقيه الرسل قبله ليتأسى بهم»[6].

وهذه هي الحال الخاصة التي نُهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الاقتداء بيونس عليه السلام فيها، ولكننا نستحضر دائماً وجوب الأدب مع أنبياء الله عليهم السلام، وأن هذا الأمر لا يعني استنقاص مقام يونس عليه السلام أو الحط من قدره، حاشا وكلا، فإننا نؤمن بأنه نبي مرسل من ربه سبحانه وتعالى، والإيمان بالأنبياء والرسل ركن من أركان الإيمان الستة، لا يتم إيمانُ عبدٍ حتى يستكملها، وقد نبّه النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا الأمر، وقَطَعَ الطريق على كل من يسيء فهمَ هذه الآية، فيقوده ذلك إلى المفاضلة على وجه العصبية ونحوها، فقال صلى الله عليه وسلم: «لا تفضلوا بين أنبياء الله، فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث، فإذا موسى آخذ بالعرش فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أم بعث قبلي، ولا أقول: إن أحداً أفضل من يونس بن متى **عليه السلام**»[7]. فصلوات الله وسلامه عليه وعلى نبينا محمد **r**.

والحال الثانية: الدعاء للكافر والاستغفار له بعد موته على كفره، فقد نُهي النبي **r** عن الاقتداء بإبراهيم **u** حينما دعا لأبيه واستغفر

1. رواه الطبري في «جامع البيان» (376/16).
2. انظر: «معالم التنزيل»، البغوي (188/3).
3. انظر: «زاد المسير»، ابن الجوزي (381/5).
4. انظر: «جامع البيان»، الطبري (200/23).
5. رواه الطبري، «جامع البيان» (200/23).
6. «الهداية إلى بلوغ النهاية»، مكي بن أبي طالب (6872/11).
7. رواه البخاري في «صحيحه» (159/4)، رقم (3414) كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾؛ ومسلم في «صحيحه» (100/7)، رقم (2373) كتاب الفضائل، باب: من فضائل موسى عليه السلام.

لـه، قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ {الممتحنة:4}؛ إلا أن إبراهيم عليه السلام قد مُنع منه بعد ذلك، وأظهر البراءة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ {التوبة:114}، وقد بيّن الله سبحانه وتعالى أن لنا في إبراهيم عليه السلام والذين معه أسوة إلا في استغفاره لأبيه الكافر، فلا يُقتدى به في هذا الموضع الخاص، لأن الله منعنا من ذلك كما بيّنه سبحانه في الاستثناء الوارد في قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ۚ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ {الممتحنة:4}، وكما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ {التوبة:113}، فهذا نص صريح واضح في هذه المسألة.

المبحث الثالث: أسلوب القرآن الكريم في عرض القدوة السيئة والتحذير منها:

من خلال ما تقدم من أمثلة للقدوات السيئة يظهر للقارئ أن القرآن اتخذ عدة أساليب في عرض هذه القدوة والتحذير منها، وذلك كما يأتي:

أولاً: النهي الصريح عن الاقتداء بالقدوة السيئة، وجاء هذا بألفاظ:

1- النهي عن «اتباعها»، كما في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ﴾ {المائدة: 77}.

2- النهي عن «طاعتها»، كما في قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ {الأحزاب:48}.

3- النهي عن الاقتداء بها بلفظ: «**لا تكن مثله**»، كما في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ {آل عمران:105}.

ثانياً: النهي غير الصريح، وجاء ذلك بأمور:

1- أسلوب التضمين والاقتضاء، فالأمر بالاقتداء بالمهتدين، يتضمن النهي عن الاقتداء بالضالين، فقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ {الأنعام:90} يقتضي أن من لم يكن مهتدياً لا يجوز الاقتداء به.

2- أسلوب المقدمة والنتيجة، وهو ما يسمى بـ»القياس المنطقي»، بذكر برهان مشتمل على مقدمتين يتولد منهما نتيجة[1]، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ {المزمل:15-16} ففيها التحذير من الاقتداء بفرعون الذي أُرسل إليه رسولٌ فعصاه فأخذه الله أخذاً وبيلاً؛ وأنتم أيها الناس قد أرسلنا إليكم رسولاً فإن عصيتموه، فالنتيجة واحدة، فسيأخذكم الله كما أخذ فرعون.

3- الأمر بالنظر في عاقبة القدوة السيئة، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾

1. انظر: «روضة الناظر»، ابن قدامة (28/1).

{آل عمران:137}.

4- وصف القدوة بصفات تُنَفِّر من الاقتداء بها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ {الكهف:28} فوصفه الله بأنه غافل القلب، فمن كانت هذه صفاته لا يجوز أن يتخذ قدوة يطاع ويُتبع.

المبحث الرابع: صفات القدوة السيئة:

وصف الله سبحانه وتعالى القدوات السيئة بصفات كاشفة، تبين حالها، وسوء مآلها، وتوجب الحذر من الاقتداء بها واتباعها، فمن تلك الصفات:

1- شدة العداوة، والحرص على الإغواء، كما جاءت الآيات في وصف إبليس -لعنه الله- ، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ {فاطر:6}.

2- أن القدوة السيئة له خطوات في إيقاع الأتباع في الشر، وقد يتأخر في ذلك فيستدرجهم شيئاً فشيئاً حتى يقعوا فيه، كما قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ﴾ {النور:21}.

3- أن القدوة السيئة قد يستخف العقول بكلامه، ويُلبّس عليهم ويقلب الحقائق، كما في وصف فرعون، فإنه استدل على كونه المستحق للعبادة بأن له ملك مصر، وأن الأنهار تجري من تحته، وبأنه يبين الكلام، وموسى u ليس كذلك، قال سبحانه: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ {الزخرف:54}.

4- أن القدوة السيئة ضال في نفسه، وليس على سبيل الرشاد، وأمره في تفريط وضياع، فكيف يهدي غيره؟! وفاقد الشيء لا يعطيه، وذلك كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ {المائدة:77}، وقوله: ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ {هود:97}، وقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ {الكهف:28}.

5- أن القدوة السيئة يبتغي الفتنة دائماً، كما وصف الله المنافقين بقوله تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ {التوبة:47}، ووصف متبعي الشبهات بقوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ {آل عمران:7}.

6- أن القدوة السيئة يتبرأ من أتباعه، وتنقلب محبته عداوة وخصومة، وتنقطع أسباب نفعه يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ {البقرة:166}.

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الذي يسر إتمام هذا البحث، وأعان عليه بفضله

ومنّه وكرمه، وقد خلصت منها بنتائج وتوصيات.

أولاً: أبرز النتائج

1- القدوة السيئة أصناف متعددة، فقد تكون فرداً أو جماعة أو تكون هوىً أو شبهة.

2- القدوات السيئة التي حذر القرآن من اتباعها متفاوتة في الخطر، وأخطرها: إبليس وفرعون والآباء الضالون، وخليل السوء، والغافلون والكفار والمنافقون والسادة والكبراء الضُّلال، والأهواء، والشبهات.

3- تعددت الأساليب القرآنية في عرض القدوة السيئة والتحذير منها، فمنها الصريح ومنها غير الصريح.

4- وصف القرآن الكريم القدوة السيئة بصفات كاشفةتبينها،لئلايُغتر بها.

ثانياً: التوصيات

يوصي الباحث بمزيدٍ من الأبحاث والدراسات التي تعالج قضايا الأفراد والمجتمعات، من خلال تدبر القرآن الكريم، والبحث عن حلولها فيه؛ ويقترح دارسة ما يلي:

1- الأصناف التي نهانا القرآن الكريم عن اتباعها وطاعتها، وبيان أثر ذلك، مما لم ترد في هذا البحث.

2- دراسة الأسلوب القرآني المشابه لقولهم: «لا تكن كفلان» باستقصاء الآيات الواردة فيه، ودراستها دراسة تحليلية.

3- دراسة أساليب أئمة الضلال في إغواء الأتباع.

هذا والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

أولاً/ المصادر والمراجع العربية:

ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد، «تفسير القرآن العظيم». تحقيق: أسعد محمد الطيب، (ط2، مكة، مكتبة الباز، 1419هـ).

ابن أبي زمنين، محمد بن عبد الله، «تفسير القرآن العزيز». تحقيق: حسين عكاشة، ومحمد الكنز، (ط1، القاهرة، دار الفاروق الحديثة، 1423هـ).

ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، «زاد المسير». تحقيق: المكتب الإسلامي، (ط4، بيروت، المكتب الإسلامي، 1407هـ).

ابن الرومي، علي بن العباس، «ديوان ابن الرومي». شرح: أحمد حسن بسج، (ط3، بيروت، دار الكتب العلمية، 1423هـ)

ابن القيم، محمد بن أبي بكر، « الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب». تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، (ط5، الرياض: دار عطاءات العلم، 1440هـ).

ابن القيم، محمد بن أبي بكر، «كتاب الروح». تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، (ط1، مكة المكرمة: دار عالم الفوائد، 1432هـ).

ابن القيم، محمد بن أبي بكر، «مفتاح دار السعادة». تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، (ط1، مكة المكرمة: دار عالم الفوائد، 1432هـ).

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، «اقتضاء الصراط المستقيم». تحقيق: د. ناصر العقل، (ط8، الرياض، مكتبة الرشد، 1421هـ).

ابن سعد، محمد بن سعد، «الطبقات الكبرى». تحقيق: إحسان عباس، (ط1، بيروت، دار صادر، 1968م).

ابن عاشور، محمد الطاهر، «التحرير والتنوير». (ط1، تونس: دار سحنون).

2011م).
الزمخشري، محمود بن عمر، «الكشاف». تحقيق: أبي عبد الله الداني، (ط1، بيروت، دار الكتاب العربي، 1429هـ).
الزهراني، د. إبراهيم بن عبدالله، «اتباع الهوى» مقال منشور في موقع «الدرر السنية» عبر الرابط https://cutt.us/EeACt.
السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، «تيسير الكريم الرحمن». تحقيق: سعد بن فواز الصميل، (ط2، الدمام، دار ابن الجوزي، 1427هـ).
السقاف، علوي بن عبد القادر، «التفسير المحرر». إعداد القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية، (ط1، الرياض: مؤسسة الدرر السنية).
السيوطي، جلال الدين، «الدر المنثور». تحقيق: د. عبد الله التركي، (ط1، القاهرة، مركز هجر للدراسات، 1424هـ).
الشوكاني، محمد بن علي، «فتح القدير». تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، (ط3، بيروت، دار ابن حزم، 1426هـ).
الطبري، محمد بن جرير الطبري، «جامع البيان». تحقيق: د. عبد الله التركي، (ط1، الرياض، دار عالم الكتب، 1424هـ).
طرفة، طرفة بن العبد، «ديوان طرفة بن العبد». تحقيق: مهدي محمد، (ط3، بيروت، دار الكتب العلمية، 1423هـ).
الفراهيدي، الخليل بن أحمد، «كتاب العين». تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، (ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1424هـ).
القرطبي، محمد بن أحمد، «الجامع لأحكام القرآن». تحقيق: د. عبد الله التركي، (ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1427هـ).
القشيري، عبد الكريم بن هوازن، «لطائف الإشارات». تحقيق: إبراهيم البسيوني، (ط1، مصر، الهيئة العامة للكتا ب) .
الماتريدي، أبو منصور محمد بن محمد، «تأويلات أهل السنة». (ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1426هـ).
الماجد، د. ناصر بن محمد، «القدوة الحسنة». بحث
ابن عطية، عبد الحق بن عطية الأندلسي، «المحرر الوجيز». (ط1، بيروت، دار ابن حزم،1423هـ).
ابن فارس، أحمد بن فارس، «معجم مقاييس اللغة». تحقيق: عبد السلام هارون، (ط1، بيروت، دار الجيل،1420ه).
ابن قدامة، عبد الله بن أحمد، «روضة الناظر وجنة المناظر». تحقيق: شركة إثراء المتون، (ط2، الرياض، شركة إثراء المتون، 1439هـ).
ابن كثير، إسماعيل بن عمر، «تفسير القرآن العظيم». تحقيق: د. محمد إبراهيم البنا، (ط1، بيروت: دار ابن حزم، 1419هـ).
ابن منظور، محمد بن مكرم، «لسان العرب». (ط1، بولاق: المطبعة الأميرية، 1300هـ).
الأزهري، محمد بن أحمد، «تهذيب اللغة». تحقيق: عبد السلام هارون.
البخاري، محمد بن إسماعيل، «صحيح البخاري». عناية: محمد زهير الناصر، (ط1، بيروت، دار طوق النجاة، 1422هـ).
البغوي، الحسين بن مسعود، «معالم التنزيل». تحقيق: د. عثمان جمعة ضميرية وآخرين، (ط2، الرياض، دار طيبة، 1427هـ).
البيضاوي، عبد الله بن عمر، «أنوار التنزيل». تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، (ط1، بيروت، دار إحياء التراث، 1418هـ).
الثعلبي، أحمد بن محمد، «الكشف والبيان». تحقيق: مجموعة باحثين في (رسائل علمية)، (ط1، جدة، دار التفسير، 1436هـ).
جبل، محمد حسن، «المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم»، (ط1، القاهرة، مكتبة الآداب، 2012م).
الرازي، محمد بن عمر، «التفسير الكبير». تحقيق: مكتب دار إحياء التراث، (ط1، بيروت، دار إحياء التراث، 1429هـ).
الراغب الاصفهاني، «مفردات القرآن». تحقيق: صفوان عدنان، (ط3، دمشق، دار القلم، 1423هـ).
الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، «تاج العروس». تحقيق: د. سمير شمس، (ط1، بيروت، دار صادر،